صور جديدة من الأدب العربي

بقلم الدكتور طه حسين

يذكر القراء المقالات التي نشرت في « المقتطف » بهذا العنوان في سنتي ١٩٢٩ و١٩٣٠ و١٩٣١ وقد عني صاحبها كامل كيلاني بجمعها وطبعها على حدة ونحن يسرنا أن نقدمها الى القراء بكلمة الدكتور طه حسين البليغة فيها : —

جميلة خصبة هذه الفكرة التي خطرت لصديقنا كامل كيلاني فأوحت إليه أن يتحدث — إلى الناس — فيما كان من تنافس وخصومة بين جماعة من العلماء والأدباء إبان العصر العباسي ، وفي مظهر بعينه من مظاهر هذا التنافس ، هو ما يسميه الناس «مناظرة» بين هؤلاء العلماء والأدباء

جميلة خصبة هذه الفكرة لأنها تعرض — على جمهرة المستنيرين — ألواناً من الحياة العقلية العربية ، ما كانوا ليلتفتوا اليها أو يفكروا فيها ، لأنها مطوية عنهم في ثنايا الكتب وبطون الأسفار

وهي — على ذلك — ناحية جميلة قيمة ؛ فيها متعة للعقول وغذاء للقلوب وتقويم للأخلاق ، وفيها — بعد هذا كله — إحياء لتاريخ الحركة العقلية عند المسلمين في عصر من أجل عصورهم وأزهاها ، وفيها — بعد هذا وذاك — جلاء لهذه المرآة الناصعة العقلية — مرآة التاريخ — التي تبين للمعاصرين أنهم ما يزالون يشبهون الذين سبقوهم في أنحاء كثيرة — من سيرتهم — يتصل بعضها بالتفكير ، ويتصل بعضها بالخلق ، ويتصل بعضها بطريقة الملاءمة بين التفكير والخلق

[illegible] الذين يقرأون ما عرضه المؤلف — من مظاهر الخصومة — بين الهمذاني والخوارزمي ، وبين الكسائي وسيبويه ، وبين المتنبي وأبي فراس وابن خالويه والحاتمي ، وبين أبي العلاء وداعي الدعاة — لا يرون هؤلاء الناس وحدهم يختصمون ويتنافسون ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويمكر بعضهم ببعض ، ويظلم بعضهم بعضاً ، ثم ينتصف التاريخ للمظلوم من الظالم ، ويثأر للبريء ممن اعتدى عليه ؛ ولكنهم يرون أنفسهم في حياتهم هذه التي يحيونها ؛ والتي يأتمر فيها بعضهم ببعض ، ويجني فيها بعضهم على بعض ، يتخذون إلى ذلك — من الوسائل والأسباب — ما كان يتخذه القدماء ويفكرون فيه على نحو ما كان يفكر القدماء ، ثم يظهرونه على نحو ما كان يظهره القدماء

فما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — همذاني يكيد للخوارزمي ويحكم الكيد ، وناس يخدعهم [illegible] تعلق المتملقين ولباقة اللبقين

وما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — كسائي يستظهر على سيبويه بجاه أولي السلطان والبأس ، ويعتز عليه بالمأجورين والمرتزقين

وما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — قوم يتساقطون على قصور الملوك والامراء كما يتساقط الذباب ؛ فيكيدون فيها للعلماء والادباء والساسة وأهل الرأي ، ويبلغون — من ذلك — ما يريدون : كله أو بعضه

ثم ما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — قوم زعموا انهم يدعون إلى الخير ، ويصدون عن الشر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وهم — مع ذلك — يلقون الشباك ، ويمدّون الاشراك ، يصيدون بها المفكرين والباحثين كيداً لهم ، ونكاية بهم ، وعدواناً عليهم

* * *

كل أولئك احياء بيننا ، نراهم — في كل يوم — ويشقى بهم كرام الناس — في كل يوم — وينقدهم الناقدون ، ويمقتهم الماقتون

ولكنا نراهم — في صورتهم الصحيحة المرذولة — حين نقرأ كتاب كامل كيلاني ، لانا نراهم — على بعد الزمن وانقطاع الاسباب — وقد ذهبت الاحقاد ، وماتت الضغائن فيهم . فهم — كما يراهم التاريخ — لا يثيرون هذه الحفيظة التي يثيرها المعاصرون ، وقد وصلت — بيننا وبينهم — صلات المنافع والمضار ، فكأن بيننا وبينهم — التعاون والتنافس

نعم ، ونحن نرى — في هذا الكتاب — ما لا نستطيع ان نراه الآن ، وما لم يستطع القدماء أن يروه ، وسيراه أبناؤنا من بعدنا ، وهو حكم التاريخ لنحسن ، وقضاؤه على المسيء

* * *

قدمت — منذ أعوام — إلى الناس ، طبعة كامل كيلاني لرسالة الغفران ، بعد ان يسّرها وقرّبها إلى المستنيرين الذين يريدون ان يتأدبوا — دون ان يقفوا أنفسهم على العلم الخالص العسير

وكنت سعيداً شديد الاغتباط ، لأني رأيت هذه العناية — بأوساط المثقفين — تعجب الناس ، وتبلغ منهم ما أراد صاحبها ، فتعلم الجاهل ، وتنبه الغافل ، وتثير نشاط القارئ

وقد راجت رسالة الغفران هذه — في مصر والشرق العربي — بل رأيت من المستشرقين في أوربا من يرضى عنها ، ويعجب بها ، لأن صاحبها كان متواضعاً ، لا يدعي لنفسه أكثر من أنه يبذل جهداً صادقاً لتقريب العلم — الذين قد لا يستطيعون أن يصلوا إليه وحدهم

وعلى هذا النحو ، يسرني أن أقدم — إلى القراء — هذا الكتاب اليسير القصير القيم الخصب الممتع في وقت واحد

* * *

كان من الحق على كامل — حين عرض لهذه الناحية من البحث — أن يصطنع خصلتين لابدّ منهما :

الأولى : أن يكون سهلاً سمحاً ، يسيراً قريباً ، لا يكلّف قارئه بحثاً ولكن يغريه بالبحث ، ولا يضطره إلى المراجعة ولكن يحبب إليه المراجعة

الثانية ، أن يحرص على الانصاف ، ويأخذ به نفسه أخذاً شديداً ، فلا يظلم العلماء والأدباء ، ولا يظلم القراء المحدثين فيفسد آراءهم في العلم والعلماء ، والأدب والأدباء ، لأن لهم علينا حق الأمانة والصدق

وإني لسعيد بأن أهديَ — الى كامل — أصدق التهنئة ، لأنه وفق إلى الخصلة الأولى كل التوفيق . فلقد قرأت كتابه — حين كان ينشر فصولاً في المقتطف — ثم قرأته أمس ، فلما بدأت القراءة لم أدعه حتى أتممته ، لم ينلني سأم ولا ملل ولا فتور ، لأن ما في الكتاب — من الحياة — والحركة وخفة الروح — خليق أن يستبقي نشاطك موفوراً ، منذ تبدأ الكتاب إلى أن تتمه

أما الخصلة الثانية ، فقد تعودت مع أصدقائي جميعاً — ومع كامل خاصة — أن أكون صريحاً شديد الصراحة ، وليست أشك في ان الانصاف ظاهر في الكتاب ، يحسه القراء ، مهما تختلف طبقاتهم وتتفاوت حظوظهم من العلم ، ولكنّ في الكتاب شيئاً لا أدري ما هو — يشعرنا بأن شخصية المؤلف لم تستطع أن تستر كل الاستتار ، بل أظهرت كثيراً من عواطفها وميولها ، وكأنها تريد — ولو في استحياء — أن تفرض علينا هذه العواطف والميول

* * *

أظنني عرفت هذا الشيء ، فني كامل شباب شديد النشاط لا يخلو من حدة وعنف ، فهو — اذا اقتنع — لم يقتنع بعقله وحده ، وإنما اقتنع بعقله وقلبه وشعوره ، وفيه كرم يتجاوز به الإنصاف إلى الإسراف في الإنصاف ، فهو لا يكتفي بأن ينصف المظلوم — بالحكم له — بل يريد أن يعاقب الظالم بالإلحاح عليه وتشديد النكير

وما أرى أن الكسائي يستحق منه هذه الشدة المسرفة في القسوة ، فمكان الكسائي — من الرواية والقراءة والنحو — يفرض علينا أن نكبره ونعرف له فضله

ومهما يجمع المجمعون على ان القول ما قال سيبويه ، فاني أحب ألاّ ننسى ان مذهب سيبويه واصحابه — في النحو — كان مذهب قياس وتعليل وان مذهب الكسائي واصحابه كان مذهب سماع وتقليد للعرب ، وأن لكل من المذهبين خطره وقيمته

كذلك كنت احب أن يرفق كامل بالحاتمي — كما رفق ابن خالويه — فكلاهما أسرف على المتنبي ، ولكنّ كاملاً ابتسم للنحوي وسخر من الاديب ، ومع ذلك فهذا الاديب خليق ان نبتسم له ، لأنه صور لنا — في سذاجة تشبه الغفلة — نوعاً من حياة الادباء في القرن الرابع تستحق ان نقف عنده ونفكر فيه

* * *

أثارت قراءة هذا الكتاب في نفسي هذه الخواطر ، وخواطر اخرى لا أجد — من الوقت — ما يسمح باثباتها ، وأحب الكتب — إليّ — ما يثير في نفسي الخواطر ، ويشطني للتفكير

فليكن موقع هذا الكتاب — من نفوس القراء جميعاً — كموقعه من نفسي . إذن يكون كامل قد ظفر — من التوفيق — بما اراد ، وبما هو اهل لان يظفر به